أوروبيّون في الحرمين من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين

أ.د. عبد الله عقيل عنقاوي

أثارت جزيرة العرب انتباه أوروبا منذ العصور القديمة؛ وحاول الأوروبيون اقتحامها خلال العهد الروماني ثمّ البيزنطي، ولم يكتب ولم يحالفهم النجاح في ذلك؛ وحين ظهر الإسلام وخرجت جيوش الفتح لتنشر الإسلام في آفاق الأرض ازداد اهتمام أوروبا وتطلعها للوصول إلى جزيرة العرب بصفة عامة وأراضي الإسلام المقدّسة بصفة خاصة.

ومع أنّ الحروب الصليبية قد هيّأت المناسبة التي التقت فيها أوروبا بالشرق العربي إلّا أنّ الجزيرة العربية ظلّت بمنأى عن الصراع؛ فقد حرص الأيوبيون ثم المماليك على إبقاء البحر الأحمر ممرّاً مائياً مقفلاً أمام الملاحة الأوروبية سواء منها الحربية أم التجارية. ولم تفلح مغامرة رينولد (ارناط) أمير الكرك الصليبي في الوصول إلى أراضي الحرمين. وذلك حين جهّز أسطولاً في ميناء العقبة انحدر به في مياه البحر الأحمر للوصول إلى موانئ الحجاز ومهاجمة المدينة المنورة، فقد سارع السلطان صلاح الدين الأيوبي بإرسال أسطول إسلامي تمكّن من اللحاق بالأسطول الصليبي عند أحد الموانئ القريبة من المدينة المنورة وأنزل به هزيمة ساحقة ووقع أفراد الحملة بين قتيل وأسير، وقضى على أحلام (رينولد) في مهدها.

ظلّت أراضي الحرمين بعد حملة (رينولد) سراً مغلقاً بالنسبة لم تطّلع عليه أوروبا لعدّة قرون حتى سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م حين استطاع أحد نصارى أوروبا النفاذ إلى الحرمين متخفّياً في ثوب إسلامي لينقل إلى أوروبا تقريراً عن مشاهداته في أراضي الإسلام المقدسة، فكانت رحلته الأولى في سلسلة رحلات جاءت على فترات متقطعة منذ مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وحتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

فمنذُ أن قام لودفيكو فارثيما (Lodorico varthema) برحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بصحبة قافلة الحج الشامي سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م متنكراً في هيئة شخص مسلم، توالت الرحلات الأوروبية التي من هذا النوع إلى الأراضي المقدسة من حين إلى آخر، وكان هناك قاسم مشتركٌ بين هؤلاء الرحالة، وهو التنكّر في ثوب إسلامي، وتدوين مشاهداتهم وملاحظاتهم الشخصية في مؤلّفات نشرت جميعها في أوروبا في حياتهم أو بعد مماتهم.

أمّا أهدافهم من القيام بهذه الرحلات، فهي أهداف معلنة وأخرى خفيّة، فالهدف المعلن هو المعرفة وحبّ الاستطلاع والكشف العلمي. فمثلاً فارثيما (Varthema) يقول: لو سألني أيّ إنسان عن سبب رحلتي، فمن المؤكّد أنّني لن أستطيع تقديم سبب أفضل من الرغبة الجامحة في المعرفة، وهي الدافع الذي حرّك الإنسان ليرى العالم ومعجزات الإله فيه. فقد صرّح فارثيما هنا بالهدف المعلن من رحلته. أمّا الهدف الخفيّ فنعرفه في نهاية رحلته الطويلة التي أخذته إلى الحجاز فاليمن ثمّ الهند، ليصل أخيراً إلى البرتغال حيث قابل الملك البرتغالي (مانويل) الذي قلّده درع الفروسية. ومن هناك عاد فارثيما إلى موطنه روما.

وأعتقد أنّ من السهولة بمكان أن نستنتج أنّ فارثيما لم يكن حاجّاً عادياً، بل جاسوساً لملك البرتغال الذي كانت أساطيله في ذلك الوقت تجوب المحيط الهندي، بعد أن

تمكّـن القائـد البرتغـالي فاسـكو دي جاما سـنة ١٤٩٨م من اكتشـاف طريـق رأس الرجاء الصالـح والوصـول إلى الهنـد. وتنبّهـت بعدها دولـة المماليك المنهـارة لحمايـة الحرمين من هـذا الزحف الصليبـي الجديد.

لقـد أخفـى جميـع هـؤلاء الرحالـة شـخصياتهم وديانتهـم الحقيقيّـة وتنكّـروا في زيٍّ إسـلامي وأجـادوا اللغـة العربيـة، وبرعـوا في أداء العبـادات والطقوس الإسـلامية التي مكنتهـم مـن العبـور إلى الحرمين دون أن ينكشـف أمرهـم. وعلى الرغم مـن وجود بعض الأخطـاء التـي ظهـرت في مؤلفاتهـم عـن بعـض الشـعائر الدينيـة والأوضـاع العامّـة في الحرمـين، سـواء أكانت عن قصد أم كانـت نتيجة لجهلهم ببعض الأمـور المتعلّقة بالعقيدة أو العـادات، إلّا أنّ مؤلفاتهـم لا تخلـو من قيمـة علمية، بل لابدّ من الرجـوع إليها، ونحن نتحـدّث عـن أدب الحج.

فمـن خلال مشـاهداتهم قدّمـوا لنا وصفـاً تفصيلياً دقيقـاً لأحوال مكة العامـة الدينية والسياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية في فـترات متعاقبة من تاريخها، كما قدّمـوا لنا صوراً حيّـةً عن الحج ومراسـمه والأمـور الأخرى التـي ترتبط به في عصـور مختلفة.

وسـنحاول أن نعـرض باختصـار نـماذج مـن هـؤلاء الرحّالـة الذيـن شـاركوا في أداء الحـج في قـرون مختلفـة، وهـم كالآتي:

الاسم	الجنسية	الوقت الذي أدّى فيه الحج
لودفيكو فارثيما	إيطالي	مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي
جوزيف بيتز	إنجليزي	نهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي
دومنغوباديالبليخ	إسباني	أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ بداية القرن التاسع عشر
الدون روتر	إنجليزي	أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين الميلادي

يحيـط الغمـوض بشـخصية لودفيكـو فارثيـما؛ فكلّ مـا يعرف عنـه أنّه إيطـالي الأصل مـن مدينـة بولونـا سـافر مـن البندقية بحـراً سنة ٩٠٨هــ/ ١٥٠٣م إلى مـصر ومنها إلى

بـلاد الشـام حيـث تنقـل فيهـا واسـتقر أخـيراً في دمشـق. وفي هـذه المدينـة تعلّـم فارثيما اللغـة العربية في بضعة أشـهر حسـب قوله، ومـن ثَمَّ انضـمّ إلى قافلة الحج الشـامي وقت خروجهـا المعتـاد في شـهر شـوال. ويتجلّى الغمـوض في هذه المرحلـة من مغامـرة فارثيما ـ أو يونـس كـما سـمّى نفسـه أثنـاء رحلتـه ـ فلم يمض بـين إبحاره مـن البندقيـة وخـروج قافلـة الحج من دمشـق سـوى بضعة أشـهر مما يجعـل من المسـتحيل عليه أن يتقـن العربية في هـذا الوقت القصـير إلى جانب إتقانه الدقيـق للطقوس والتعاليـم الدينيّة بصورة تجعله بعيـداً عـن اكتشـاف حقيقته، وهـي نقطة جديـرة بالملاحظة. ويمكـن أن يسـتنتج منها أنّ فارثيـما قـد أعدّ إعـداداً جيـداً قبل مغادرتـه أوروبـا إلى الشرق.

ويمـضي فارثيـما في غموضه فيقـول: إنّه تعرّف في دمشـق على بعض العسـكر المماليك الذيـن سـاعدوه في الوصول إلى أحـد الأمراء المماليك الـذي ضمّه إلى الجنـد المرافق لقافلة الحج الشـامي؛ لحراسـتها في ذهابهـا وإيابها، وبذلـك أتيحت له الفرصة للقيـام بأداء الحج دون أن ينكشـف أمـره؛ وبـصرف النظر عـن روايـة فارثيـما عن الظـروف التي سـاعدته عـلى الانضـمام إلى القافلـة التـي تدعو إلى الشـك في صحّتهـا لغرابتهـا؛ فقد تمكـن فارثيما مـن السـير مـع قافلـة الحـج الشـامي إلى الحرمـين، ودَوّنَ رحلته التـي نـشرت بالإيطالية وترجمـت إلى عدد مـن اللغـات الأوروبية.

وممّـا يلاحـظ عـلى فارثيـما الميـل إلى المبالغـة في ذكـر الأرقـام والإثـارة بعـرض بعض الأسـاطير التـي يوردهـا كحقائق، فعنـد إشـارته إلى قافلة الحجِّ الشـامي التـي خرج معها ذكـر أنّ عـدد حجّاجهـا أربعـون ألـف حاجٍّ وعـدد جمالها خمسـة وثلاثـون ألفاً؛ أمّـا قافلة الحـج المـصري التـي شـاهدها بعـد وصولـه إلى مكة فعـدد جمالها سـتون ألـف جمل.

وقبـل وصولـه إلى المدينـة المنـوّرة بيومـين تقريبـاً مـرّت القافلـة بجبل محيطـه من ١٠ إلى ١٢ ميـلاً، وفي هـذا الجبـل يسـكن أربعـة آلاف أو خمسـة آلاف شـخص مـن اليهـود، وهـم عـراة تماماً يـتراوح طـول الواحد منهم بين خمسـة إلى سـتة أقـدام، أصواتهم شـبيهة

بأصوات النساء، ولونهم يميل إلى السواد، لا يأكلون إلّا لحم الغنم، وهم مختونون يجهرون بيهوديتهم، وعندما يتمكنون من القبض على أحد المسلمين يسلخون جلده حياً، وبطبيعة الحال كانت القافلة تمرّ بالقرب من خيبر التي ربما سمع فارثيما بأنّها كانت موطناً لليهود. فهو هنا يضفي على الحقيقة ثوباً من الأسطورة.

على أنّ هناك بعض الحقائق التي تهمّنا في رحلة فارثيما، فعند وصوله إلى المدينة المنوّرة أشار -وربما لأول مرّة- إلى المرور بقوله: (في أول يوم دخلنا المدينة، وعند بوابة الحرم اضطرّ كلُّ فردٍ منّا صغيراً أو كبيراً إلى أن يرافقه شخص أخذ بيده وقاده إلى حيث قبر محمد صلى الله عليه وآله)، ويخطئ فارثيما عند وصفه للمسجد النبوي حين يشير إلى أنّ الحجرة التي تضمّ القبر النبوي الشريف تضمّ إلى جانبه قبور أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين.

وتنبّه فارثيما عند وصوله إلى مكة إلى الصراع الدائر بين الشريف بركات وأخيه الجازاني أبناء محمد بن بركات على إمارة مكة، وأشار إلى الأحوال المضطربة في مكة؛ والحقيقة أنّه قبل وصوله بقليل استطاع الجازاني أن يقتحم مكة بعسكره ويقتل -حسب رواية عبدالعزيز بن فهد القرشي- الرجال والنساء والصبيان، وينهب البيوت ويسبي العبيد والإماء، بل الكثير من أمّهات الأولاد وأولاد الناس أيضاً. ولم يستطع أمير مكة بركات التصدي له، بل لقد كافأه السلطان المملوكي الغوري الذي كان عليه أن يسعى إلى دعم الاستقرار في الحرمين بأن نصّبه أميراً على مكة بدلاً من أخيه بركات.

لقد أعجب فارثيما ببيوت مكة، وقال: إنّها تشبه بيوت روما في بنائها، وقدّر عددها بستّة آلاف بيت، وقدّر قيمة المنزل الجيّد منها بأنّها تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة آلاف دوكات من الذهب، وهي عملة بندقية. ولم يغب عن ملاحظاته الوضع الاقتصادي في مكة، فأشار إلى أنّها تقع في أرض قاحلة، وأنّ مؤونتها تأتيها من خارجها من بلاد الهند وفارس ومصر وبلاد الشام، وأنّ كميّة كبيرة من المجوهرات والتوابل ترد إليها من

الهند، ولذا فقد وجد مكة تتمتع بنشاط تجاري كبير في موسم الحج. ويصف فارثيما المسجد الحرام والكعبة المشرفة، وهي البناء السابق للبناء الحالي، ويشير إلى أنّ أروقة الحرم الشريف تضمّ ما بين أربعة إلى خمسة آلاف شخص من الرجال والنساء الذين يبيعون جميع أنواع العطور والروائح، وأغلبها للحفاظ على أجساد الموتى... ويخطئ فارثيما كغيره من بعض الرحالة الذين أتوا بعده، فيجعل الرجم والذبح رمزاً لطاعة إسحاق لأبيه إبراهيم.

وعلى أيّ حال فمع وجود بعض الأخطاء المقصودة وغير المقصودة فيما نقله فارثيما عن المدينتين المقدّستين، لا يشكُّ بقيمة الرحلة كمرجع تاريخي يساعد على معرفة أوضاع الحجّ في أواخر العصر المملوكي، وأحوال مكة في ذلك العهد.

الرحلة الثانية هي رحلة جوزيف بيتز:

تشكل الرحلة الثانية ـ وهي رحلة جوزيف بيتز ـ حالة خاصة، وهو شاب إنجليزي من مدينة اكستر بإنجلترا، اختار البحر وهو في السنة الخامسة عشرة من عمره، وعمل بحاراً في سفينة تجارية أبحرت به في سنة ١٦٧٨م في رحلة تجارية. وفي طريق عودتها، وقرب الشواطئ الأسبانية تعرضت السفينة لهجوم من سفينة جزائرية حيث وقع جميع بحارة السفينة الإنجليزية في الأسر، اقتيد الجميع ليباعوا في أسواق النخاسة في الجزائر. وتنقل بيتز من سيد إلى آخر حتى سنة ١٠٩٨هـ/ ١٦٧٨م حين اصطحبه سيّده الأخير معه لأداء الحجّ. ومع أنّ بيتز اضطرّ ـ حسب قوله ـ إلى إعلان إسلامه تحت التعذيب، فقد عاد إلى نصرانيته بعد تحريره وعودته إلى إنجلترا. ومع أنّ ثقافة بيتز لم تكن في مستوى يؤهله لأن يكون دقيقاً في ملاحظاته إلّا أنّه تميّز بحسٍّ مرهف وذكاء ثاقب بحيث جاءت كتاباته عمّا شاهده في رحلة حجّه أقرب إلى الدقة والحقائق التاريخية من سابقه. فقد كتب عن مكة أنّ أهلها ينامون في أسطح المنازل أو

على كراسي أمام منازلهم أو حوانيتهم، وهذه حقيقة شهدناها في طفولتنا. كما أشار إلى أنّ الماء كان متوفراً بغزارة أثناء إقامته في مكة، ولاحظ أنّ مكة تفتقر إلى النباتات ولكنّ سوقها يحفل بأنواع الخضراوات والفواكه الطازجة، مثل العنب والبطيخ والشمام وغيرها، ولم يغفل عن الإشارة إلى مصدر هذه الفواكه والخضراوات وهو مكان غنيٌّ بالثروة الزراعية ـ حسب قوله ـ يبعد عن مكة يومين أو ثلاثة، ويقول: إنّ ذلك المكان ـ إذا لم يكن مخطئاً ـ يسمّى الحبشة، وهو الذي تأتي منه الأغنام أيضاً، ويبدو أنّ بيتز قد خلط هنا بين الفاكهة والخضراوات التي تأتي من الطائف والأودية المحيطة بمكة، وبين الأغنام التي ربما كانت تستورد من الحبشة أو السودان.

لم يفت بيتز أن يسجّل عند وصوله إلى جدّة مقابلة المطوّفين للحجاج، فقد قال: إنّه ومن معه من الحجاج قوبلوا بأدلّاء قدموا من مكة ليقودوا الحجاج في أداء شعائر الحجِّ عند وصولهم إلى بيت الله الحرام والمشاعر، كما لم يفته بعد أن وصف البيت الحرام والكعبة المشرفة أن يشير إلى كسوة الكعبة التي كانت تصنع في مصر وترسل سنوياً مع قافلة الحج المصري. ولكنّه يخطئ حين يشير إلى أنّ الكسوة المذكورة تحمل من مصر إلى مكة على نفس الجمل الذي يحمل المحمل، أي أنها توضع بداخله، فالواقع أنّ كلاً منهما يحمل على جمل خاص به. وأعجب كيف استطاع بيتز وهو في خدمة سيّده أن يعلم ما يحدث بالنسبة للكسوة القديمة بعد وصول الكسوة الجديدة، فقد أشار إلى أنّ الكسوة القديمة يستولي عليها أمير مكة، ويجعلها قطعاً صغيرة تباع للحجاج الذين يحرصون على شراء قطعة منها مهما صغرت. وتصل قيمة القطعة الصغيرة منها إلى عشر شلنات، والحقيقة أنّه قد كان الشيبيون هم من يستولي على الكسوة القديمة ويقومون ببيعها في حين يستولي شريف مكة عليها في بعض السنين ليقوم بإهدائها ويعوض الشيبيين عنها ببعض المال.

ويعطي بيتر تقديراً مقبولاً لعدد الحجاج في موسم حج عام ١٠٩٨هـ فيقول: إنّ

الذيـن وقفـوا في عرفـات ذلك العام يقـدّر عددهم بسـبعين ألف حاجٍّ. ولم تغـب عن باله حركـة البيـع والـشراء بعـد عـودة الحاج من منـى، فيقـول: إنّ الحجـاج يبقون بعـد انتهاء الحـج لمـدة عـشرة أيـام إلى اثنـي عـشر يومـاً، يقام خلالهـا سـوق عظيمة يبـاع فيهـا أنواع كثيرة مـن البضائـع المجلوبة مـن الهند، من بينهـا الذهـب والأحجار الكريمـة إلى جانب البضائـع الواصلـة من الصـين وغيرها مـن الأماكن.

وأخـيراً لم يغفـل بيتـز حتى عن الإشـارة إلى أجرة الجمـل الذي يحمل الحـاج في عودته مـن مكـة إلى مـصر قائـلاً إنّ هـذه الأجـرة تعـادل قيمـة شراء الحمـل وتبلغ مابين خمسـة وسـتة جنيهـات اسـترلينية. وبطبيعة الحـال ربّما فضل الحاج أن يسـتأجر بدلاً مـن الشراء؛ لأنّ المقـوّم في حالـة الإيجـار يكـون مسـؤولاً عـن تهيئـة جمل بديـل في حالة مـوت الجمل المؤجـر أو عجزه.

أمّا الرّحّالة الثالث:

هـو (أي دومنغـو باديا لبليخ) عـلى النقيض تماماً من بيتـز، فقد كان بيتز مملـوكاً مرافقاً لسيّده في الحـج في حـين اصطحـب الرحالـة الأسـباني دومنغـو باديـا لبليـخ أو علي بيك العباسي ـ كما سـمّى نفسـه ـ حاشـية مـن الخدم ووصـل إلى مكة قادماً من الإسـكندرية في موسـم حج ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م.

أجـرى عـلي بيـك قبل البـدء برحلتـه، اتصـالات مع بعـض الشـخصيات البـارزة في باريـس ولنـدن وأجـاد تنكّـره في أراضي الإسـلام بدرجة أنّه اسـتطاع إقناع السـلطات في مكـة بأنّـه واحـد من أبنـاء البيت العباسي، وهـو الأمر الـذي يؤكد الغـرض الحقيقي من رحلتـه وهـو ماقيل مـن أنّه جاسـوس لنابليـون لإجراء دراسـة وتقديـم تقارير عـن نموّ واتسـاع الدولـة السـعودية الأولى وموقف الدولـة العثمانيـة العدائي منها.

اسـتقبل عـلي بيـك اسـتقبالاً حافلاً في مكـة، وكانـت سـجادته تفرش ـ حسـب قوله

في المسجد الحرام خلف الإمام مباشرة، بل لقد أتيح له بناءً على شخصيته المزيفة أن يدخل الكعبة المشرفة (وهو أمر انفرد به بين سائر الرحالة الغربيين) يوم غسلها مع شريف مكة وشيوخ القبائل والضيوف أصحاب الشخصيات البارزة. يقول علي بيك في ذكره لهذه المناسبة: «دخل الشريف الكعبة محمولاً على أكتاف بعض الناس ورؤوس البعض الآخر يصحبه كبار شيوخ القبائل... وكنت واقفاً بعيداً عن الباب تجنباً للازدحام حين أشار إلى سيد زمزم (ويقصد رئيس الزمازمة) بالتقدم تنفيذاً لأمر الشريف... وكان شريف مكة يكنس أرض القاعة بنفسه، وما كدت أدخل حتى قدموا لي عدداً من المكانس الصغيرة، أمسكت ببعضها بكلتا اليدين، وفي تلك اللحظة صبّوا كثيراً من الماء على البلاط فأخذت أكنس بكلتا يدي...». وبعد الانتهاء من الغسل يضيف علي بيك: (وعندئذٍ مَنَحَني السلطان لقب خادم بيت الله الحرام). وإذا أجزنا رواية علي بيك عن مشاركته في غسل الكعبة، فماذا يمكن القول عن المنحة التي أسبغها عليه الشريف، وهو لقب خادم بيت الله الحرام؟ وهو لقب لم يكن يخلع إلّا على الخلفاء والسلاطين الذين يتولون أمر الحرمين الشريفين.

وعلى أيّ حال فقد تميّز علي بيك عن سابقيه بأنّه كان عالماً جغرافياً وجيولوجياً، وكان مزوداً بآلات قياس دقيقة استطاع بواسطتها تحديد مواقع الأماكن المختلفة التي زارها، سواء التي تقع على البحر الأحمر أو المدينتين المقدّستين. كما أنّه قام بفحص آبار مكة الواقعة حول الحرم، وقرّر أنّ جميع هذه الآبار بما في ذلك بئر زمزم تأتي من مصدر واحد.

وعلى الرغم من استدراكه بالقول بأنّ الآبار الأخرى لا تنيل شاربها بركة السماء ـ حسب قوله ـ كبئر زمزم إلّا النتيجة التي توصّل إليها تبدو كأنّها محاولة للتشكيك في مياه بئر زمزم، وبالرغم محاولات علي بيك المستمرة في كتابه إظهار إيمانه القوي بالإسلام وتمسّكه الشديد بعقيدته إلّا أنّه يميل أحياناً إلى السخرية في وصفه لبعض

الطقوس الإسلامية، فعن جمرة العقبة يقول: «وبما أنّ دهاء الشيطان قد دفعه إلى إقامة بيته في مكان ضيق جداً لا يتجاوز عرضه أربعاً وثلاثين قدماً، وتقوم في الطريق المؤدية إليه صخور ضخمة يجب اجتيازها لتأمين رشق الحجارة، وبما أنّ جميع الحجاج يريدون إتمام هذا العمل المقدس حال عودتهم إلى منى، فإنّ المكان تسوده بلبلة غريبة». على أنّ القيمة الحقيقية لرحلة علي بيك العباسي تتجلى في مشاهدته لدخول الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود مع جيشه مكة المكرمة في هدوء وطمأنينة يحملون في أيديهم رماحاً، لكنّهم لم يكونوا يرفعون بيارق ولا يحملون طبولاً، ولا شعارات عسكرية، وكانت تصدر عن بعضهم صرخات... وأنّ الناس لم يفهموا للوهلة الأولى المعنى الإصلاحي لهدم المزارات وتقويض أضرحة الأولياء التي كان المؤمنون يؤدون إليها واجب الإجلال...، لقد قيل: إنّ علي بيك حاول العودة إلى مكة مرّة ثانية في موسم عام ١٨١٨م، ولكنّ المنية فاجأته وهو على بُعد مائة وعشرين ميلاً من دمشق، وهناك شكٌّ في أنّ عميلاً إنجليزياً قام بتسميمه.

أمّا رحّالة الرابع هو الدون روتر :

ويمكن أن نعتبره آخر الرحالة المتخفين في ثوب إسلامي الذين تركوا وراءهم سجلاً مكتوباً برحلتهم؛ وروتر إنجليزي غير معروف تماماً، وحتى عندما تحدّث عن نفسه في مقدمة كتابه لم يذكر شيئاً عن شخصيته أو عن بداية رحلته أو غرضه من الرحلة؛ فقد استهل كتابه بقوله: «في شهر مايو سنة ١٩٢٥م كنت في القاهرة وحينئذٍ عزمت على الرحلة إلى مكة لأداء الحج الإسلامي هناك، وعند إتمامه أزور المدينة حيث قبر محمد صلى الله عليه وآله ... إنّ الحرب الآن مستعرة في جميع مملكة الحجاز وإنّ قوات السلطان ابن سعود قد استولت على الطائف، وتقدّمت في ملابس الإحرام ودخلت مكة واستولت عليها دون إراقة قطرة دم أو حوادث عنف».

بهذه العبارات ابتدأ روتر كتابة مقدمة الرحلة، ونحن نتساءل هنا ما بال هذا

الإنجليزي المجهول الهوية المتمسّك بنصرانيته، يخاطر بنفسه في ظروف عصيبة خاصة؟ وأنّه سمع أثناء إقامته بمصر أنّ الحكومة المصرية قد حصلت على فتوى من العلماء بجواز عدم الحجِّ في هذا العام لاضطراب الأحوال الأمنية للحجاج نتيجة لظروف الحرب. وبناءً على هذه الفتوى فقد أعفت الحكومة نفسها من تنظيم الحجِّ المصري وترتيبات سفره.

لقد واجه روتر في رحلته مشاقاً عظيمةً وأخطاراً جساماً، فقد كانت جميع موانئ الحجاز الشمالية بما فيها ميناء جدة مقفلة في وجه حركة الملاحة؛ مما اضطر روتر إلى القيام بحركة التفاف أخذته إلى أقصى جنوب الحجاز. فقد استقل قارباً بخارياً من السويس رحل به إلى القصير قبور سودان فمصوع. ومن هنا استقل سنبوكاً أو قارباً صغيراً نقله إلى أحد موانئ عسير الجنوبية وهو القحمة. ومن هذا المكان واصل روتر طريقه براً بواسطة الجمال في صحبة بعض القوافل الصغيرة من القحمة إلى البرك فالقنفذة فالليث ثمّ إلى مكة المكرمة.

نشرت رحلة روتر بعنوان: (The Holy Cities Of Arabia) في مجلدين في لندن سنة ١٩٢٨م. واستطاع أن يقدّم لنا في المجلدين عرضاً متكاملاً للمجتمع المكي في مطلع القرن العشرين، بل وقدّم أيضاً عرضاً جيداً لأحوال تهامة عسير وجنوب الحجاز. فلم يترك شاردة ولا واردة في الحياة اليومية لأهل مكة إلّا والتقطها ووجد لها حيزاً في كتابه، فتحدث عن الزواج والطلاق وتعدّد الزوجات، وعادات المكيّين في إقامة الحفلات في مختلف المناسبات، ووصف الأزياء الرجالية والنسائية وأدوات الزينة للنساء، والمطبخ المكي وأنواع الطعام وأسلوب الطبخ والدور وأثاثها. ولم يغفل الرق والسحر والشعوذة، بل والموت والعادات المتبعة في الجنازة والدفن والعزاء. لقد حاول روتر أثناء إقامته بمكة التي امتدت لبضعة أشهر أن يندمج في المجتمع المكي؛ فحضر شتى المناسبات الاجتماعية، ووصفها وصفاً دقيقاً مفصّلاً، حتى بلغ به الأمر

أن ينقـل حرفيـاً ما جـرى في جلسـات متكاملة من حديـث ونقاش بين المكيـين الحضور، وبلهجتهـم الخاصـة التي يسـتعصي فهم بعـض اصطلاحاتها عـلى كثير من شـباب اليوم. وهـذا دليـل على تمكّنه وسـعة اطلاعـه باللغـة العربيـة واللهجات...

لقـد قدّم روتـر في كتابه وصفاً دقيقاً لحج عـام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م. كـما أنّه إلى جانب وصفـه الدقيـق لمكة وصـف لنا بعض المـدن والقـرى الواقعـة جنوبها التي كانـت مجهولة إلى وقـت قريب.

عـلى أنّ رحلـة روتـر تـزداد أهميـة بوصفه شـاهد عيـان على التطـورات الجديـدة التي شـهدتها المنطقـة في هذا الوقـت، وهي: انتقـال الحجاز بصـورة عامة والحرمـين الشريفين بصفـة خاصـة إلى أيـدي الملـك عبـد العزيـز آل سـعود، ممـا سـهل لروتـر أن ينتقـل مـن الجنـوب إلى الشـمال وأن يسـافر إلى الطائف عـبر طريق السـيل ويعود عن طريـق الهدا... أشـار في كتابـه في ذلـك في أكثر من مناسـبة.